الإسلام في موكب الإصلاح

الحكم الوراثي *

للأستاذ محمد عبد الله السمان

كانت وثبة الجيش المباركة إيذانا بنهاية حكم إقطاعي جائر . ظلت مصر السنين الطوال ترزح بسببه تحت أعباء ثقال من المحنة والإرهاق والشقاء . وتتجرع كؤوسا فائضات من البؤس والأسى والعناء ، ولم تكتب وثبة الجيش المباركة نهاية ذلك الحكم الإقطاعي المنقرض إلا وهي مؤمنة بفساده ، وبضرورة هدمه من أساسه ، لتقيم على أنقاضه نظاما صحيحا يعتمد على أسس سليمة تحقق الخير للشعب والوطن على السواء

ومن الحقائق التي لا تحتاج إلى نقاش ، أن الحكم الإقطاعي المنقرض لم يشد أزره في الماضي المنصرم سوى نظام الحكم الوراثي ، الذي كان شرا كله على مصر وطنا وشعبا ، فقد كان يخيل إلى الجالس على العرش أن مصر ضيعة له ، وأن شعبها عبيد نعمته ، كما قدر له أن يظل في جبروته مطمئنا ، وفي عدوانه آمنا ، لا يرهب الشعب ولا يخشى ثورته ، لأن الشعب الذي لم يجلسه على العرش لا يقوى على خلعه عنه ، ولأن الشعب الذي اغتصبت بلاده لتكون إقطاعية يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد ، لا يقوى على انتزاع السلطة من المفروضين على حكم بلادهم فرضا

ونظام الحكم الوراثي نظام إقطاعي محض ، نكبت به بلاد الشرق ، وفي مقدمتها مصر ، فقد ظلت الأسرة العلوية تحكمها حكما وراثيا خلال قرن ونصف قرن ، فنهبت ما نهبت من خيراتها ، وسرقت ما سرقت من أراضيها ، وحولت مجرى الثراء إلى أفرادها ، حتى بلغوا القمة من الثراء بينما هوى الشعب إلى الدرك الأسفل من الفاقة ، ولم تهب لهذا الشعب الغلوب على أمره لحظة من الحرية حتى يرى النور ، ولا ذرة من الرخاء حتى يلمس السعادة ، لأن الحرية كانت وقفا على الأمراء يجعلون منها حصنا لجبروتهم وترفهم وعربدتهم ، ولأن السعادة كانت حقا مقدسا لهم وحدهم ، ينعمون بها ، ويمرحون في ظلها ، ويلتمسون بها حياة الدعة ودنيا الأرستقراطية البلهاء !

واليوم يرقب الشعب المصري ، ويرقب العالم أجمع معه باهتمام ماجريات الأمور في مصر ، وإلى أي نظام ستتجه في حكمها ، ولا يعتقد الشعب المصري ، ولا الدول المخلصة من دول العالم ، أن نظام الحكم الوراثي سينال لدى المسئولين شيئا من العطف ، وما قام الجيش الباسل بوثبته إلا ليقوض أركان الفوضى التي كانت أثرا من آثاره . لقد كان كل من سبق (فاروقا) إلى الجلوس على العرش طاغية ، وسيكون — لا قدر الله — كل من سيخلف فاروقا طاغية أيضا ، وكأن مصر لن تتفرغ إلا لمشاهدة الكفاح بين الشعب والطاغية المتربع على العرش ، وهي في مسيس الحاجة إلى الاستقرار لتبلغ المكانة الجديرة بها ، وليصل شعبها إلى حيث يعيش كريما أبيا

ولا ريب في أن القضاء على نظام الحكم الوراثي ، خطوة موفقة يرحب بها الإسلام ويفسح لها صدره ، لأنه نظام قائم على أسس متراقصة من الباطل ، فهو يعتبر الملك في درجة الآلهة ، وأسرته في منزلة الأحبار والرهبان من أبناء الآلهة ، ويعتبر الملك فوق القانون ، ويخول لأسرته أن تعيث في الأرض فسادا دون أن يجرؤ القانون على مجرد سؤالها ، وهو نظام يفرض على الشعب الوارث للملك ولو كان مخبولا أو معتوها أو فاجرا أو عربيدا

ولهذا كله ينكر الإسلام أشد الإنكار على هذا النظام المتل ، لأن الإسلام أقوى وأعدل من أن يرضى لإنسان — كائنا من كان — أن يكون فوق القانون ، بل إنه يعتبر مسئولية الحاكم أشق من مسئولية العامة ، لأنه راع لابد أن يسأل عن رعيته ؛ ولا يعفيه القانون من العقاب ولا أسرته إذا فعلوا ما يستحقون عليه العقاب ، وها هو ذا كتاب الله يخاطب محمداً (ص) :

..« ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا »

وها هو ذا محمد (ص) يخاطب من حوله في أحرج ساعات الموت :

« ألا من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد

وها هو ذا (ص) يخاطب أسامة حين جاءه يشفع في حد من

(*) المقال مقتبس من « كتاب الإسلام والأمن الدولي » للكاتب

حدود الله : .. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها !

والإسلام يعتبر الحكم من حق المسلمين جميعا ، يولون من يرضونه لدينه وخلقه ، ولا يمكن أن يقر احتكار أسرة من الأسر له ، ولم يكن فى استطاعة محمد (ص) أن يؤثر بالخلافة من بعده واحدا من بنى هاشم عصبيته ، بل ولم يكن فى استطاعته أن يوصى بالخلافة من بعده لأى إنسان . ولقد حدث حين عرض الرسول نفسه على بنى عامر أن قال لأحدهم : «أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك . أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .. »

وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى لم يستطيعوا أن يؤثروا بالخلافة من بعدهم أحدا من عصبياتهم ولا أن يفرضوا على المسلمين واحدا من ذوى رحمهم ، لأن إيمانهم يحول دون أن يخالفوا صاحبهم ، أو يحدثوا حدثا فى الإسلام ليشعلوا الفتنة . وأى فتنة أكبر من الحكم الوراثى البغيض ، والاستبداد بوضع هو من حق المسلمين على السواء ؟

نعم ، حدث أن أشار أبو بكر على المسلمين بعمر ، كما أشار عمر على المسلمين باختيار واحد من ستة من كبار الصحابة .. مات رسول الله (ص) وهو عنهم راض ، وهم : « عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام » وأن يشهد الانتخاب عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شئ ، حدث هذا وذاك من أبى بكر وعمر ، ولكن لم يكن إلا من قبيل النصح والإشارة ، لا من قبيل الفرض والإكراه ، ولولا أن أبا بكر لمس الموافقة من المسلمين بالإجماع لما كان عمر خليفة ، ولولا أن عمر لمس الموافقة من المسلمين بالإجماع لما كان واحد من الستة خليفة ، وقد كان يمكن التكلم فى حق أبى بكر وعمر ، لو أن واحدا منهما أوصى بالخلافة لواحد من أبنائه ، ولكن لم يحدث شئ من هذا

لقد زين المغيرة بن شعبة لعمر أن يستخلف ابنه من بعده فأبى وهو يقول : « لا أرب لنا فى أموركم ، وما حمتها فأرغب فيها لأحد من بيتى ، إن كان خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد »

ولقد أشير على كرم الله وجهه وهو يجود بنفسه أن يوصى بالخلافة فقال : « لا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر بأمور دنياكم »

أما ماحدث فى عهد معاوية من استبداده بالأمر وجعله وراثيا من بعده ، فلم يكن من الإسلام فى شئ ، وليس من الحكمة الخوض فى هذه المسألة الدقيقة ، وقد يكون معاوية قد تأول فأخطأ ، وقد يكون قد استبد بالأمر دون تأول ، والمهم أن يفهم أن الإسلام يقرر النظم الصالحة ، وليس مسئولا بعد هذا عن استبداد ولاة الأمور ولا يلقى المسئولية إلا على عاتق الرعية المتخاذلة المستضعفة

ولقد كان عمر بن عبد العزيز واحدا من عصبية معاوية ، ولكنه لم يرض عن نظام الحكم الوراثى لأنه لا يعتمد على مشورة المسلمين ، وحين آل إليه الأمر بالوراثة صعد المنبر ثم قال :

« أيها الناس ، إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى منى فيه ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم » فتصارع من بالمسجد وقالوا بصوت واحد : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ولولا هذا الإجماع فى الرضا ماقبل أن يكون خليفة بالوراثة ، وهو يعلم أن فى الحكم الوراثى خروجا على نظم الإسلام

وبعد — فإن فى استطاعة مصر اليوم أن تتخلص من أوحال الماضى وأوزاره ، ولم يصنع هذه الأوحال والأوزار إلا الملكية ، التى أثبتت خلال قرن ونصف قرن من الزمن أنها أصل الفساد فى كل ما أصاب مصر من التأخر ، وأصاب شعبها من التقهقر ، ولقد كانت هذه الملكية عقبة فى سبيل الإسلام حتى لم يستطع من فوق أرض مصر أن يؤدى رسالته ويجهر بها ، فهى التى قدمت للشعب المصرى المسلم — على أيدى نفرة بعض رجال الدين — إسلاما زائفا هزيلا لا يمت إلى الإسلام الصحيح بصلة ، إسلاما زائفا هزيلا يترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ويدع ولاة الأمور يستبدون ويفجرون ويبطشون ، ويقنع الشعب بالصبر والمصابرة ، والتسليم والسالمة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا